الحلقة 16

نموذج للجدال بالتي هي أحسن

حوار المؤمن وصاحب الجنتين في فتنة المال

حينما نتطرق إلى قصص القرآن الكريم نستذكر الحوادث الواقعة وأحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة كما أخبرنا بها الله في كتابه العزيز، فقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي وذكر البلاد والديار وتتبع آثار كل قوم وحكى صورة ناطقة لما كان يدور في هذه العصور، والمغزى من ذلك قوة التأثير في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق، فهناك قصص عرضت بالكامل في سورة واحدة وأخرى عرض جزء منها في سورة والآخر في سورة أخرى.

فقد بين الله لنا أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء. فهذه القصص ليست مفتراة بدليل وجود أمثالها بين الناس، ففيها الحكم والعبر ونستفيد منها الكثير.

وبعد ما ذكرناه، نترككم كي تعايشوا هذا الجو القصصي في حلقات رمضانية متتالية، سيتم نشرها تباعا لكي نستفيد من مغزاها والدروس المستفادة منها، وتكون خير معين لنا في فهم ديننا وإيصاله للناس بالصورة الصحيحة وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى إنه نعم المولى ونعم النصير.

سورة الكهف

رجلان باختلاف القلوب والعقول ابتلي الله أحدهما بالعطاء والآخر بالمنع

قال ابن عباس: هما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالا

المؤمن تصدق بماله حتى افتقر والآخر تزوج واشترى بماله العبيد والبساتين

خص الله تعالى الإنسان بنعم عظيمة، منها العقل واللسان، يناقش ويحاور، ويشرح قضاياه، ويبين معتقداته، من خلال الحوار، وهو خير وسيلة للتفاهم، وفي قصة صاحب الجنتين التي ذكرها القرآن الكريم ، يتألق موقف المؤمن، الشامخ أمام فتنة المال والجاه، فينبري لصاحبه الكافر يحاوره مذكراً ومحذراً، في حوار قرآني فيه الكثير من العبر.

وتعرض الآيات البينات القصة في قوله تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ×كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ×وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ×وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ×وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ×قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ×لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ×وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ×فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ×أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ×وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ×وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ×هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)، «سورة الكهف: الآيات 32 – 44».

توضح القصة أن رجلين مثل كثير من الرجال باختلاف القلوب والعقول أبتلي الله، أحدهما بالعطاء والآخر بالمنع، تناقل المفسرون روايات مختلفة، جعلت للرجلين اسماً ونسباً وحرفة وعقيدة، وقال بعضهم إن هذه ضررها أكثر من نفعها، فالمقصد هو الابتلاء، واختلفوا في حقيقة المثل الوارد في قصة الرجلين، روي أنهما كانا أخوين من بني إسرائيل، ورثا أربعة آلاف دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكره القرآن، واشترى عبيداً، وتزوج وأثرى، وأنفق الآخر ماله في طاعات الله عز وجل حتى افتقر، والتقيا ففخر الغني ووبخ المؤمن، فجرت بينهما هذه المحاورة.

وقال ابن عباس هما أخوان من بني إسرائيل، مات أبوهما وترك لهما مالا، فاشترى أحدهما أرضاً وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله فكان من أمرهما في الدنيا ما قصه الله تعالى، وحكى مصيرهما في الآخرة.

وجاء في تفسير الإمام السعدي، يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر بها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب، ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما.

وأحد الرجلين الكافر بالنعمة، جعل الله له جنتين، أي بستانين من أعناب، وفيهما من كل الثمرات، كلتاهما آتت ثمرها وزرعها متضاعفاً، الأنهار في جوانبهما، كثيرة غزيرة، ولذلك الرجل ثمر، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذه غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا أغتر بهما وافتخر، ونسي آخرته، ثم لم يكفه الافتخار، حتى دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ولا تنقطع أو تضمحل، فاطمأن إلى الدنيا ورضى بها، وأنكر البعث.

ظالم لنفسه وجاء في تفسير «القرآن العظيم»، دخل الكافر جنته وهو ظالم لنفسه، بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا، اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال وما أظن الساعة قائمة، ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله، ليكونن لي هناك أحسن من هذا لأني محظي عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا.

قال له صاحبه المؤمن، ناصحاً ومذكراً بحاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا، فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً كامل الأعضاء والجوارح، ويسر لك الأسباب، وهيأ نعم الدنيا، فكيف يليق بك أن تكفر بالذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً وتجحد نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك، هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

وإن فخرت علي بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالا وولداً، فإن ما عند الله، خير وأبقى. استجاب الله دعاءه وأصاب البستانين عذاب، فلم يبقَ منهما شيء، فندم واشتد أسفه.

روايات اخرى للقصة

قصة صاحب الجنتين وردت قصةُ صاحب الجنتين في القرآن الكريم في سورة الكهف، قال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا×كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) وهذه القصَة تُقدّم لمن يقرأها وجهتي نظر مختلفتين لمظاهر الحياة، وما فيها من رزق يتفاوت بين الناس، بين الغنى والفقر لحكمة ربانيّة عظيمة، فالقصة تتكلّم بواقعيّة عن وجهة نظر إنسان مؤمن فقير، ولكنّه متوكّلٌ على الله، مؤمنٌ بالله حقّ الإيمان؛ لأنّه يعلمُ يقيناً أنّ الحياةَ الدنيا لا تساوي شيئاً لو قُورنت بالآخرة، وما أعدّهُ الله تعالى للمؤمنين في الجنات، والرجل الآخر هو صاحب الجنتين الذي فتنته أملاكهُ فظنّ أن هذا النعيم الدنيوي نعيمٌ دائمٌ؛ وهو رجلٌ كافرٌ بأنعم الله، رزقهُ اللهُ جنتين وبستانين عظيمين جميلين، وكانت تلك الجنتان مزروعتين بالأعناب وتحيط بهما أشجار من النخيل. ولكنَ هذا الرجل بجهله وكفره فُتن بهذه النعمة العظيمة، وفُتن بهاتين الجنتين وما تُنتجانه من شتّى أنواعَ الثمار والفواكه، حيث أمرَ اللهُ الجنتين بأن تُنتجا لذلك الرجل صاحب الجنتين شتّى أنواع الثمار فاستجابت الجنتانُ لأمر الله، فأنتجتا ثماراً يانعةً ناضجةً، تسرُّ النّاظرين، والأصل أن يكون موقف صاحب الجنتين الشكر لله على هذه النّعم العظيمة الجزيلة، ولكنّه بدل ذلك تجاوز وغفل وكفر بالنعمة، وأخذ يتكبّرُ على الرجل الفقير (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) ، لَمَ يؤمن، ولم يَشكر الله عَلى النعمة، لم يتصدّق، ولم يقُم بما يجبُ عليه، بل كفر ومنع وتكبّر، ونسب الخيرَ والنعمة لنفسه، بدل أن ينسبها للمُنعم المتَفَضّل سبحانه وتعَالى، وظنّ أن هذه النعمَةُ لن تَزَول بل ادّعى أنّه إن رجع إلى الله فسيجد أفضل من هذه الجنات لا إيماناً بالله بل تعنّتاً وتكبّراً، فهو يظنُ نفسه صاحب المكانة العالية، وله الوجاهةُ والأفضليةُ على ذلكَ الرجل الفقير ومن في مثل وضعه، (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا×وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) ويأتي ردُّ الرجل المؤمن الثّابت على الإيمان، المتمسك بالميزان الإيماني الصحيح ولم تخدعهُ الحياةُ الدنيا وزُخرُفها، فيردُ على كُفر وتكبّر وتعنّت صاحب الجنتين، بحوار هادئ هادف، يُذكّر صاحب الجنتين بأصل خلقته من ضعف ومن مادة ضعيفة فيقول له: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) ويتابع أنّه ثابتٌ علىَ الإيمان بالرب المُنعِم المتفضّل سبحانه وتعالى، وأنّ الأصلَ أن يرتبطَ قلبُ العبد بالله في الغنى والفقر وفي كل الأحوال، وأن الصحيح إذا دخل الإنسانُ أملاكاً لهُ أن يقول: ما شاء الله، وأن ينسب القوة والملك والنعمة لله سبحانهُ فيقول: لا قوة إلا بالله (لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبّي أَحَدًا×وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا))، ويتابعُ الرَجلُ المؤمنُ حوارهُ بَكل ثقة وإيمان عظيمينِ ثابتينِ راسخين.

فيقولَ المؤمنُ لصاحب الجنتين إن كنتَ تراني فيما يظهرُ لكَ من علمكَ القاصر المتعلق بالظاهر، أنك أغنى مني مالاً وأكثر عدداً وقوةً ومنعةً، فإنَ الله سبحانه وتعالى قادرٌ أن يعطيني خيراً من جنتك، وأخذ يحذّره من غضب الله تبارك وتعالى فإن عاقبة الكفر والبغي والاغترار بالنعمة عاقبةٌ وخيمةٌ، فالله سبحانه وتعالى قادرٌ علَى أن يهلك جنتيك ويدمرهما؛ بسبب اغترارك وبغيك وظلمك وكفرك (فَعَسَى رَبّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا×أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) ثم يأتي عَقابُ الله سبحانه وتعالَى لذلك الكافر المعاند الذي اغترّ بالدنيا، واغترّ بجنتيه، فقاده غروره وكفره إلى أن غضب الله عليه، فاستحق العقاب من الله العظيم، جبّار السموات والأرض، فأرسل الله سبحانه وتعالى على جنتي ذلك الرجل صاعقةً دمّرت الجنتين، وأهلكتهما، وأتلفت ما فيهما من ثمار، فندم صاحب الجنتين على ما قدّم، وأدرك أنه استحقَ زوال هذه النعمة العظيمة الجليلة؛ بسبب كفره وعناده وغروره (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّي أَحَدًا×وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا).

نعم ندمَ صاحبُ الجنتين على شركه بالله، وندم على كفره بالنعمة، ولكنّ ندمهُ جاء بعد هلاك جنتيه وخسارتَه لما أنعم اللهُ عليه، وعلمَ وقتها أنه لا عظيمَ ولا ناصرَ إلا الله، ولا يستحقُّ العبادةَ إلا الله، وأنّ النعمة يجبُ أن تُقابلَ بشُكر الله عليها، وأدرك أنهُ أخطأ أكبر الخطأ حينما منعَ الصدقةَ، وحرم الفقراءَ والمساكين من حقهم في هذه النعمة.

حكمة ذكر القرآن قصَة صاحب الجنتين يَضربُ القرآنُ الكريمُ أمثالاً واقعيةً ذاتُ تأثير بالغ، وفيها العبَر العظيمة؛ والقصدُ من وراءَ إيرادها تثبيتُ قلب المؤمَن، وتقويةُ صلَته وعلاقَته بالله، ونزَع الكُفر وَخُبثه من قُلوبَ العبادَ، فقد وَرَدَ في القَرآن الكريم قَصّةَ رجلَ جمحَ عَن دعوة الحقّ، وآثرَ الضَلالةَ والكُفرَ على الهُدى والإيمانَ، وكانَ لهُ جنتان، وهما بُستانان عظيمان، فافتُتنَ بجمالهماَ، وأنكرَ البعثَ والآخرة، وضُربَ هَذا المثل لَيُبيّنَ عاقبةَ مَن غرّتهُ الحياةُ الدُنيا وآثرَها على الآخرة؛ فأعماهُ مالُهُ وسُلطانُهُ، ولم يستجب لنُصح الناصحين، ولم يتّعظ بمن سبقهُ، ولمَ يأخذَ العبرةَ فأغواهُ الشيطَانُ، فوقعَ في شرِّ الخطيئةِ والمَعصية.

وَلايَةُ لَلَّه الْحَقّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

الفوائدَ مَن قصة صاحب الجنتين : رضا الرجل الفقير المؤمن بما أتاه الله له والنعمة الحقيقية هي في إيمان القلب الصادق وكيف يعتز المؤمن بإيمانه بالرغم أنه فقير ولا يحسد الغني أبدا التيقن أن كل شئ بيد الله سبحانه وتعالي وهو من يعطي ومن يمنع، وله سبحانه حكمه في ذلك و أن الدنيا زائلة مهما ملكنا بها، ويجب أن لا تلهينا الدنيا عن ذكر الله عز وجل

ما حدث للغني المغرور من زوال النعم، وكان الأولى به إعطاء الفقير حقه ، و كيف ظلم هذا الغني نفسه بنكران نعم الله عز وجل عليه و أنه يجب عدم نسيان ذكر الله ونعمه بما يؤتيه لعباده وأنه ليس هناك نفع من المال والولد ما لم يعينا العبد على طاعة ربه و جزاء إنكار البعث وجزاء عدم أخذ النصح من المؤمن التقي والندم بعد فوات الأوان لا يفيد و أن من يشرك بالله سبحانه وتعالى ليس له ولي .

بستان عملاق

كان ذا ثراء فاحش

أنفق ماله على ملذات الحياة

أعطاه الله الرزق الواسع